مجلة آفاق علمية ISSN: 1112-9336
المجلد: 13 العدد: 05 السنة 2021 ص 513 - 531

تاريخ الإرسال: 2020/11/08 تاريخ القبول: 2021/02/24
تاريخ النشر: 2021/11/04

الجسد موضوعا للدراسات الثقافية.استقراء لأهم الإشكالات والمنجزات

The body is subject to cultural studies - reading in the most important problems and achievements

باحث دكتوراه حطاب حطاب[1]، مولاي مراد الحاج[2]
جامعة وهران (02) محمد بن احمد(الجزائر)، 1hatab.hatab@hotmail.fr
جامعة وهران (02 محمد بن احمد(الجزائر)،[2]mhmourad@yahoo.fr

الملخص:

يعد الجسد من المواضيع المعاصرة المهمة للدراسة والبحث خاصة من الناحية الثقافية والاجتماعية وما يترتب على ذلك من ظواهر إنسانية وسلوكيات اجتماعية فمن خلال هذا المقال النظري والنقدي نقدم أهم الأسس العلمية السوسيولوجية الانثروبولوجية التي عنيت بدراسته وجرد أهم مراحل الدراسات الثقافية المعاصرة حول الجسد وتبيين خطاطة الاصطلاح المستعمل في هذه الدراسة، كما نحاول طرح الكيفية التي عالجت بها الدراسات الثقافية موضوع الجسد ونوجه بذلك النظر إلى الأفق المفتوح في هذا المجال .

الكلمات المفتاحية: الجسد، الدراسات الثقافية، انثروبولوجيا، الجسد، سوسيولوجيا الجسد، الجندر.

Abstract:

The body is one of the most important contemporary subjects of study and research especially from cultural and social aspects , the resulting human phenomena and social

behavior through this theoretical and momentary essay, we offer the most important scientific underpinnings sociology and anthropology the study and the most important stage of contemporary cultural studies on body and to point out the convention plans used in this study, we are also trying to explain how cultural studies have been addressed the body is the looking at the open horizon in the area.

Keywords: The body. Cultural studies . Anthropological body. Sociological body . Gender.

المؤلف المرسل: حطاب حطاب:HATAB.HATAB@HOTMAIL.FR

1.مقدمة:

كان يجول فكر الإنسان وخاطره منذ البداية بحثا عن فهم ما يدور حوله، فوجه سؤاله نحو الطبيعة وما فيها، وعن الكون وما فيه؟ واستخدم كل إنسان حسب فكره وما أتيح له منذ البداية لاستغلال هذه القدرة أو هذا الكمون الطبيعي الخام فيه، إلاّ أن الإنسان لم يهتم بتوجيه السؤال نحو نفسه إلا في مراحل متأخرة من الانشغال الفلسفي أو في تلك التطبيقات الطبية العلاجية، وهنا كان الجسد مهملا بالرغم من موقعه الظاهري المحسوس وضرورته التواصلية مع الطبيعة، كما وان الجسد كان الأداة الوحيدة لارتباط الجوهر الإنساني الغير الجلي مع الجليّ والعكس.

لم يكن السؤال الفلسفي والطرح الفكري مهتما بالجسد بالمستوى الذي قبعت فيه التجريدات بالرغم من المحاولات الفلسفية من طرف الفيلسوف الهولندي"باروخ سبينوزا" أو تلك التي همشت موضوع الجسد(الجسد المبتذل)، وهذا كان مبعدا عن الخطاب العلمي الذي يساعدنا فهم النقوش الفكرية المترسبة والمتقطعة حوله،فالجسد ليس حيلة فكرية لتجديد المواضيع البحثية أو ترفا معرفيا زائدا بل لنقل لولا الجسد لما كنا نعرف بالضبط ما نعرف، ولا كيف نوجد في الوجود.ولا ندرك كيف تستقر ادوارنا

الاجتماعية فهو المساحة التطبيقية المتفاعلة لجميع الظواهر البسيطة والمركبة.اذن ما هو الجسد في معناه السوسيو–انثروبولوجي؟ وما الذي قدمته الثقافة عموما له؟ وهل كان الجسد فاعلا في الثقافة دوما؟ هذا ما نريد أن نتتبعه عبر الدراسات السوسيو–جسدية والأنثروبو–جسدية معتمدين على كل ما أفرزته هذه العوامل والأسباب حول الجسد الإنساني، فالجسد أصبح اليوم موضوع حقول معرفية عدة من التصنيف والتحليل والترميز والتأويل وهذا ما سنحاول إبرازه في الدراسات الثقافية المعاصرة.

2. الدراسات الثقافية والنقد الثقافي

جرت عادة الاشتغال في هذا الباب تعميم المعنى دون التفصيل فيه وهذا ما يحرّج القول والفصل في هذا الباب خاصة ونحن نتكلم عن الجسد، معنى ومبنى، ثقافة وممارسة، أداءا ودورا، تمثلا ووجودا، ولذلك قررت إدراج هذه المقالة ضمن هذا السياق لما يتسع فيه المجال لاحتضان الدراسات الثقافية حول هذه الموضوعات وأخرى،" قد يستعمل مصطلح الدراسات الثقافية على نحو فضفاض للإشارة إلى جميع جوانب دراسة الثقافة الأمر الذي يفهم منه إن الدراسات الثقافية تحيط إحاطة شاملة بمختلف طرق دراسة الثقافة وتحليلها في علم الاجتماع والتاريخ و الاثنوغرافيا والنقد الأدبي بل حتى علم البيولوجيا الاجتماعية ولكنه يستعمل بصورة أدق للإشارة إلى مجالات البحث الأكاديمي..."1.

ظهرت الدراسات الثقافية في أعمال "ريموند وليامز" و"ريتشارد هوجارت" في أواخر الخمسينات وأوائل الستينات من القرن الماضي حتى انشأ مركز برينغهام للدراسات الثقافية المعاصرة في سنة 1964م ببريطانيا ثم انشأ بعده في أعمال الدراسات الثقافية سنة 1972م أيضا بذات المدينة الأول باختصار(the centre for contemporary cultural studies)ومن بعده(bringham working papers

in cultural studies)[2].اما النقد الثقافي فيعتبر من فروع الدراسات الثقافية المعاصرة فلقد:" اشتهر النقد الثقافي باعتباره مبحثا حيويا داخل الدراسات الثقافية بما احدثته من تغيير مهم في منهج تحليل الخطابات واستثمار المعطيات النظرية والمنهجية لحقول معرفية متداخلة كالسوسيولوجيا والتاريخ والسياسة والفلسفة والأدب"[3].

إذن يمكن أن ندرك أهمية الدراسات الثقافية بفرعها النقد الثقافي ان الجسد موضعا خصبا لها من حيث نسق الثقافات والخطابات المتجسدة من حوله التي تسعى الى تفكيك تلك البني والأنظمة من حوله،" يرتكز النقد الثقافي على أنظمة الخطاب وأنظمة الإفصاح النصوصي كما لدى بارت ودريدا وفوكو...يولي النقد الثقافي أهمية كبيرة لدور المؤسسة العلمية والثقافية كيفما كانت في توجيه الخطاب والقراء نحو نماذج وانساق وتصورات يتأسس معها الذوق العام وتتخلق بها الصناعة الذهنية وتصبح معيارا يحتذى به أو يقاس به"[4].

1-2الجسد والدراسات الثقافية

الدراسات الثقافية المعاصرة تقدمت كثيرا في ميادين البحوث الجسدية ودراستها والتي تدعى بالدراسات الثقافية الجسدية(physical cultural studies p.c.s))والتي تهتم كثيرا بالمجال الفني والأدبي والثقافي،فهذا النوع من الدراسات :" يشمل المجال المختلف من الأعمال العلمية التي يجمعها الالتزام باستخدام أبعاد أو تعبيرات مختلفة لأجساد النشطة أو الثقافة الجسدية(أندروز سيك) وبهذا السياق ينظر إلى الثقافة الجسدية بأنها الممارسات الثقافية ...وترتبط الدراسات الثقافية ارتباطا وثيقا بمجالات علم الاجتماع الرياضي وعلم حركات الجسم الثقافية"[5].

بما أن الدراسات الثقافية تشربت من جميع التخصصات والحقول المعرفية فهي حاولت نوعا ما الخروج من هذا الضيق للتخصصات وفسح أفق مفتوح ومتعدد

الأقطاب للدراسة، وهذا طبعا ما عرفه التقدم الانجلو– ساكسوني في هذا المجال من التيارات المؤثرة مثل المابعد –حداثية،" يغلب على الدراسات الثقافية الجسدية الاهتمام بدراسة الجسد النشط، تجعل التقسيمات الاجتماعية واضحة وقابلة للتغيير (الطبقة،النوع(الجندر)والعرق والقدرة والجيل والجنس، والعنصر والأمة) وكذلك الآليات التي تنتج تلك التقسيمات وتعيد إنتاجها وتوزيعها"[6]

تحاول هذه الدراسات الثقافية الجسدية من خلال هذا المنهج التجريبي والبيني للتخصصات الاهتمام أكثر يفهم العلاقات بين الاقتصاد والسياسة والتقنية المعقدة والتي أحاطت بالجسد الإنساني لتجعله بثقافة جسدية ما دون الأخرى/ بلغة أخرى يبدو أن التفكيكية مؤثرة جدا في هذا المجال.

تسعى الاستاذة "فيكي كيربي" (Viki kiriby) من جامعة سيدني والمتخصصة في الدراسات الثقافية والما–بعد كولونيالية والنسوية إبراز دور وأهمية موضوع الجسد في البحوث المعاصرة تقول:" ...إذ يسود اعتقاد أننا ننتج عبر ممارسات وايديولوجيات دالة تشكلها وتخلق الدوافع لها خطابات السلطة كما أن الجندر(النوع الاجتماعي) الخاص بنا وهويتنا الثقافية هي تشكيلات سياسية/ثقافية وليسا هبات طبيعية"[7]

تهتم كثيرا كيربي بدراسات الجسد وتحاول إحياء الثنائية القديمة بين الطبيعة والثقافة وبين الفطري والمكتسب، وهي تحاول لفت الانتباه إلى ضرورة فهم آلية اشتغال هذه الثنائية معتمدة بذلك على مخارج السنية ثقافية ومنهج تفكيكي دريدي، فهي تعبر بالعلامة عن الجسد تستعير هذه الكلمة لتعبر عن :"الجسد ليس المادة البايولوجية العالمية التي تنتجها الثقافة تلك المادة الميتة الخاملة التي يتشبث بها المتخصص الثقافي والاختزالي البايولوجي، ولهذه المادة القدرة على التحول باستمرار وتتمتع بمرونة مذهلة حيث التمايزات بين الثقافة والطبيعة والداخل والخارج شديدة

التعقيد...والتناص الكامن في هذا التداخل المتبادل بيمن الجسد والدلالة يخلخل التحديد الزمني المعني بمعرفة من يأتي أولا"[8]

3-في تاريخية الجسد

أصبح الجسد في فترة متأخرة يشغل حيّزا محوريا من البحث، وهذا الاهتمام كان من قبيل تدارك حجم الإهمال العلمي الذي رافق هذا الموضوع على غرار ما حدث في الفلسفة وتاريخها، فالجسد هو الصورة التي ينتظم بها حال الإنسان عبر زمان ومكان معين، بشكل ضمني أو تجلي وتواري، حضورا وغياب، او لنقل انه لا يتم معرفة الوجود والتيّقن إلا به.

لقد ذكر في "معجم الاثنولوجيا والانثربولوجيا" إن هناك" تنوع تصورات الجسد في الزمان والمكان ويبرز هذا التنوع في مثالان أساسيان: يضم الأول: مجتمعات التي على غرار الغرب منذ افلاطون تفضل الروح ركيزتها الجسدية ويشمل الثاني: أنظمة العالم التي تغيّر الإنسان...، العالم المصغر كصدى للكون او جوهره"[5].

ضمن هذين الشقيّن نتدارك امرا مهما في تاريخ التفكير حول الجسد، الأول هو انه أهمل إلى درجة الاعتقاد في أهمية ما هو جوهري يمتثل للحقيقة المطلقة الغير فانية، لاغية بذلك كل ما هو مادي حول الإنسان، والثانية امتداد مادي صغير في الحيّز الكوسمولوجي الكوني ويبقى الجسد بينهما مترنحا.

من الناحية الانثروبولوجية لم يكن الجسد قد تشكّل بعد بصيغه التفكيرية أو لتنص نصوص عليه على انه أصبح علما متخصصا لما أنتجه الإنسان حول ذاته.

لكن يمكن أن ترصد الانثروبولوجيا بعضا من التجارب المتقطعة تاريخيا لتخبرنا كيف سيطر ذلك الجانب الأسطوري حول رموز مفسّرة لهذا الجسد الإنساني، ولماذا بقي عالقا بين الشقيّن السابقين(الجوهري/الكوني):"يرد هذا الاعتقاد أحيانا في الكتب

التأسيسية مثل الاوبانيشاد الفيدية، إذا كانت عدة نصوص كونية ترى أن الإنسان ولد من الأرض كما يرى "هيزيودوس" في تصوره لأنساب الآلهة(الروح)، فهناك بالمقابل نصوص أخرى بالأخص "التيبت" تعلل نشأة الكون انطلاقا من جسد كائن كوني أو بيضة شملت كل الكائنات فلن نندهش إن فكرة تشابه البنية العضوية للإنسان والبنية العضوية للعالم(المادة)..."[6].

لقد نسج المتخيل الأسطوري والصور الميثولوجية المؤسسة للعقل المعرفي البشري في مرحلة مهمة من تاريخ الإنسانية تقريبا كافة ما شغل الإنسان :" إن الصورة الرمزية لجسد الملك في الملكية الانكليزية تضم جسدا بشريا فانيا إلى جسد سياسي خالد، في هذا الفكر تتجلى صيغة الملك وسيط بين المسافات السماوية والأرضية".[7]، في بعض التصورات كان الجسد رابط تفاعلي يشابه ما حول الإنسان من حيوان ونبات وطبعا هذا التحديد المقارن لم يكن من قبيل الصدفة بل كان ليعبر عن هذا الجسد بدأت تظهر عليه فواعل مشتركة حيوانية متشابهة وهذا ما سيقدم فيما بعد إحدى أهم الركائز في الفكر الإنساني (الغريزة، الطبيعة الإنسانية/ الوعي/ اللاوعي) وكما نعلم إن التحليل النفسي والدراسات الثقافية فيما بعد اعتمدت في تحليلها لكثير من القضايا من هذه الرؤية فـ" في داخل إفريقيا الساحلية يتجلى بالأخص تطابق كامل بين المركبات الداخلية للجسد البشري والركائز الحيوانية أو النباتية كما هو الحال بالنسبة لدى شعب تالي"[8].

إن الاستخدام والتوظيف للبدن لم يكن ليتجاوز مبدئيا المقابلة الإنسية – الحيوانية في مراحل تطور الجنس البشري، لكن كانت أولية لضمان الحماية والبقاء، وتمهيدا لمرحلة أخرى مختلفة تماما، "إن الجسد الإنساني هو أداة قوية لتحديد النقاط المكانية الزمانية وغالبا ما يكون ركيزة تعليق الجهات الأصلية كما يحصل عند

"الدوغون" في أرجاء العالم في تشكيل نماذج ثنائية متناسقة وغير متناسقة انطلاقا من فحص القطبيات الجينية ..."[9].

إنّ المقارنة بين الجسد الإنساني والحيواني لم تكن من دواعي التقابل الساذج، بل أسس ذلك لكثير من الرؤى العلمية والفرضيات المشهورة، لكن يبدو أن العلاقة لا تنتهي إلى هذا الحد بل أن السبل المعرفية الأولى للإنسان من خلال اكتشاف أهم الفوارق التي جعلت من الإنسان الرمز (ارنست كاسيرر) قادرا على بناء معارفه الأولى حول جسده.

3-1 الجسد فلسفيا

يقول فيلسوف الجسد"موريس ميورلو بونتي(Merleau ponty Mourice)*" فالمرء يوجد كشيء ويوجد كشعور، أما وجود الجسم بالذات فإنه يكشف لنا على العكس صيغة وجود غامضة"[10]، إن مهمة الفلسفة تقريبا لم تكن لتوجد جوابا سهلا مستهلكا أو تفسيرا كليا قبل الاعتقاد بالقدر الذي توجه فيه الفكر وتركز مهمتها عبر السؤال والتساؤل وتوسعة وعاء الاشكالية ورفع حجب البداهة عن العقل الإنساني، " في الواقع الجسم البشري سمته غير قابلة للامساك ظاهريا من وجهة نظر تصورية أو أيضا رفض بعض اعتباره موضوعا جديرا لاهتمام الفلسفي...لكنه الموضوع الذي نكونه... ومن هنا أهمية التفكير به خاصة حينما يسعى المرء لفهم ما هو الإنسان"[11].

فهل يمكننا استبعاد الوعي البشري عن التفكير بالجسد؟ أم هو مطلب ملحُ ؟.

إن الجسم الإنساني هو الخيط الناظم المتصل في الزمان والمكان وهو يشغل الصورة والمادة، مرئي/ وغير مرئي، نحاول إمساكه صوريا لكنه يتدرج ماديا لحد التصلب، وهذا ما ما يزيد من رغبتنا في الفهم والوعي به وتجنب إقصائه أو إغفال الفكر عنه، "يرى مورلو بونتي" من الجسم –انه– مركز التفكير الفلسفي، القلب

من الكائن ذاته ومن الكائن ذاته لكل فرد في العالم مؤثر –متأثر، رائي ومرئي "[12] لذلك فان مفهوم الجسم الجسد يشكل موضوعة كبرى لطالما أن الجسد يحدد كيفية الوجود الإنساني.

انقسمت مرة أخرى ثنائية جديدة حول الجسد في حقل الفلسفة، أو تاريخ فلسفة الجسد بين مقولتي الذات /الموضوع أو كما عبر عن ذلك مورلو بونتي:" نحن لسنا وعيا فقط أو موضوعا فقط بل نحن وعي وموضوع معا وكل ما فينا نفس وجسد معا"[13] ويضيف أيضا :" لسنا فكرا وجسدا، لسنا وعيا قبالة العالم، بل نحن فكر متجسد في العالم"[14]. وهنا يكون "مورلو بونتي" قد وجه الفكر الفلسفي من الكوجيتو الديكارتي :"أنا أفكر أنا موجود : إلى " كوجيتو آخر ، أنا جسدي على حسب الرؤية الفينومينولوجية، وهذا التوجه والقلب في قواعد الفلسفة ليس موجها لديكارت بل لما أهمله العقل الإنساني في مرحلة ما،" معنى الجسد الخاص هو ذلك المجسد في العالم هو تلك الرمزية ذلك الجسد الحي هو الجسد الفينومينولوجي...هو الذات عينها فإن تجربته هي تجربة المعيش ، تجربة الوجود في العالم بكل غموضها وترددها وبكل كيفيات التباسها "[15]، يبدو ان الدرس الفلسفي الفينومينولوجي سيكون له الأثر البالغ على العلوم الإنسانية والاجتماعية فيما بعد، خاصة وانه أصبح أساسا ومرتكزا معرفيا للخبرة و المعيش اليومي، وحركاته متسارعة الإيقاع على كلية فهم الثقافة.
كيف سيصبح الدرس الفلسفي مهما للثقافة وعلومها؟.او كيف سيكون الدرس الفينمينولوجي الجسدي أساسا للبحوث الجسدية داخل حقل العلوم الاجتماعية؟.

انتقلت الفلسفة من تجاهل الجسد إلى الاهتمام به وهذا الاهتمام جاء عبر الاعتراف الأولي انه أداة للمعرفة ومنتجاتها، وليكن هذا التصريح الاداتي ليجعل من الدرس الفلسفي مرة ثانية حبيس جوهر المعرفة /وموضوعها وهنا كان الجسد من مصادر المعرفة لا غير إلى أن جاءت الصيغة التي تربط بين ذات الجسد/

وموضوع الجسد عبر عملية غامضة ومحيرة:" إن العملية الانعكاسية تعني التحول الجذري للمسألة الكلاسيكية مسألة علاقة الجسدي بالنفسي، حيث يتحول الجسد عماد الوجود ووسيلة للإدراك لفهم الآخرين باعتباره جسدا ضمن أجساد آخرين، فجسدي وحسب الآخر يتقاطعان إذ ليس للجسد من الجسد عوضا عن قول "باروخ سبينوزا" ليس أجدى للإنسان من الإنسان في عالم يعرف فيه الجسد ويعترف به"[16]

إذن هنا قد تبلور محور مهم في علاقة الدرس الفلسفي للثقافة الإنسانية وهو صراحة بان الجسد نقطة تواصل وتفاعل منعكسة، الجسد "أنا" والجسد "الآخر" لا يتضح المعنى ولا يرى المبنى إلا بهما وهنا تمتد جذور البحث والدرس الثقافي والاجتماعي للتشكل والظهور في العالم الاجتماعي للإنسان.

2-3 اتيقا الجسد

تسعى إحدى محاور فلسفة الجسد المعاصرة إلى طرح إشكالية جديدة تهم حقيقة الوضع البشري ومنها العلاقة الأخلاقية والقانونية التشريعية للجسد البشري، والذي يحتاج إلى حد الحماية في وضع تلك القوانين الكفيلة يجعله أمنا ،".. بل من المؤكد إننا بحاجة إلى اتيقا الجسد البشري التي ترفع عنه الانتهاكات الخفية باسم التقدم العلمي والتكنولوجي والطبي ..."[17]

من هنا ندرك قيمة معرفية وأخلاقية بحيث الجسد لا يعتبر ملكية مطلقة للشخص بالرغم من تفرده به وحتى غيره المقابل له، فهم خاضعين لمتغيرات وعوامل تَحكُمُ السلوك وسبل التصرف به والتوجه به للآخر، فمثلا: العلوم التكنولوجية والطبية التي نحتت كثيرا من الجسد البشري وأصبح حقلا مستغلا ومستباحا إلى حدود الاستنساخ أو سبل التجميل والجراحات التبرعية كلها قضايا تثير اتيقا مسؤولية الجسد البشري.

إن مفهوم اتيقا الجسد يحيلنا إلى ثلاث حقوق هي:[18]

أولا: الاختيار فالإنسان الحق أن يختار القيام بعملية تجميلية أو ترقعية .

ثانيا: العدل في تكافؤ الفرص بين المرضى الأغنياء والفقراء حتى لا نشهد تلك الطبقية.

ثالثا: التعاون بين الأجساد فيما بينها بحركات التبرع.

من الناحية الاتيقية اكتشفنا كيف أن هذا الجسد هو "أنا" وغيري في ذات الوقت لما يجره من مسؤوليات منظمة أو ضابطة للحقوق والواجبات وسوف يشهد هذا الجسد عبر التكنولوجيا الحديثة كيف أصبح غير معطى وحسب بل يمكن التحكم في البنية اللحمية وتحسينها وتغيرها من خلال جسد آخر، انه وضع لزال غامضا ومثيرا لجدل الصورة والشكل والتمثل،" من الدواعي الرئيسة لإرساء اتيقا الجسد البشري عملية تهميش الجسد وتهجينه التي نقراها على صفحات الانترنت بعنوان : كلى البشرية تصنع في الفئران"[19].

إن الحق في الحياة ليس يبيح كل شيء، فلا بد من خرائط حمائية للنسالة البشرية ذاتها ومسؤولية الكل في ذلك، فإتيقا الجسد تحتم على الباحث في علوم البيولوجيا والطب أن يراعي بين الكتلة الفيزيولوجية وحسب بل هناك ضبط،"للأبحاث العلمية المقامة على الحيوانات لان انعكاسها جد مؤثر على الإنسان" خاصة مع ازدياد الحديث عن حرب الهندسة الوراثية"[20].

إن الجسد الذي بين أيدينا من الناحية الاتيقية نحن مسئولون عنه سواء في المسؤولية الآنية أو الفردية أو الجماعية في علاقتنا بالأخر والعكس، كما أنها مسؤولية الإنسانية ككل وان هذه الأخيرة مرتبطة بمستقبل الأجيال القادمة وهنا سنرى قيمة الجسد عبر الأزمنة الثلاث، فالجسد ليس ماضيا دون حاضر ومستقبل، بل هو كل هذا،"...إنها مهمة البيو–اتيقا التي من أهدافها الرئيسة الحد من التجاوزات الأخلاقية داخل التطبيقات العلمية وبالرجوع إلى معنى البيو– اتيقا وهو اتيقا الحياة

أو الأخلاقيات البيولوجية فمن المعقول أن تهتم بالاحترام ما يشمل موضوعها وهو المحافظة على الحياة الإنسانية أي المحافظة على الجسد البشري..."[21].

الآن ما هو المهم في المبحث الاتيقي للجسد بالنسبة للعلوم الاجتماعية؟.

في الحقيقة هو سؤال أساس محوري في البحوث اليوم وربما يحتاج للتفرد في البحث إلا انه وجب توضيح علاقة السرد المعرفي بالبحث للقارئ والباحث على حد سواء؛ أرى من خلال هذا الطرح أن الجسد الإنساني سواء فردا أو جماعة مالا يمكن عزله عن التأثيرات الخارجية فهو متأثر إلى درجة يعرض فيه حياة الفرد أو الكل إلى الزوال من ناحية الخطورة، ومن ناحية أخرى الصيغ الاجتماعية والثقافية أو المؤثرات الزمانية والمكانية لا يمكن أن نراها إلا امتداد لطرح علمي وتفكير فلسفي حول الجسد وهنا ينمو الطرح العلمي للعلوم الاجتماعية بثبات من حيث اطر التشريع الاجتماعي للقانون والحماية لأجل تنظيم صيغ التفاعل والتبادل،المتداخلة في تغيير أحوال الجسد وهو تحول تجسُدات البشري ككل وهذه الرؤية تسمح لنا بالتركيز على الجوانب الخارجية المؤثرة على الجسد.

فالجسد هنا أصبح مصوّغا للوجود الاجتماعي بل هو المجتمع الذي لا يمكن استيعابه ولا فحصه الا بالجسد، كما ان الجسد لا يفحص إلا به ولا يعرف الا به، وهذا التفاعل هو ما يهم بحثنا وتوجهنا في علاقة ثلاثية بين وعي الإنسان وجسده ومجتمعه، وهذه العلاقة ثلاثية الأبعاد في تفاعلها وتبادلها ويمكن أن تتوسع إلى واقع آخر أكثر من هذه العلاقة الثابتة، فيمكن ان تكون العلاقات متحركة ومرنة ومستنسخة ومتوقعة إذا هاجر الانسان مثلا، فيصبح الجسد عرضة للتحولات والتغيرات وهنا نكون في علاقة مضطربة مكهربة للجسد، الممكن والثابت هنا يستطيع ان يتحول جذريا في مكان وزمان آخر وهذا ما يفرض إعادة طرح السؤال حول الجسد في كل حالة ووضعية(الوعي، الهوية، التفاعل والتواصل) ولا ننسى ان

الجسد البشري اليوم يشغله واقعه كما تشغله الحياة الافتراضية، هذا الجسد الذي لا يعترف بالحدود ويذيب كل عائق كلاسيكي للجسد زمانا ومكانا.

لم يعد الجسد في هذه المرحلة المعاصرة يمتثل إلى تلك الثنائية القديمة بقدر محاولة الانشغال عن الحقيقة وفضيلة الجسد، إلى سلطة وحرية الجسد، فالجسد ليس معطى ثابتا جاهزا، سواء كقيمة معرفية او صورة وشكلا منتهيا، بل هو الوسيط والأساس في شبكة علاقات السلطة والإكراه والقهر، الذي يتعرض له وهو ذاته يجازف عبر كل حقيقة بتحرره وطرح أسلوب جديد في محاربة تلك العلاقات السلطوية الإكراهية تجاهه، خاصة من طرف المجتمع الذي هو فيه مدلول على الوجود تشكله للمجتمع في حد ذاته.

العقل العلمي اليوم في حقل العلوم الاجتماعية منشغل بالسلطة والحرية كموضوعة أساسية للجسد وهذا ما يقربنا من سيرة الجسد في التشكل وإظهار معنى من المعاني أكثر من كونه كتلة جامدة وحسب.

4- انثروبولوجيا الجسد

4-1-الجسد والعرق أو في تعريق الجسد

لا أريد الخوض في مسألة قديمة –متجددة من تلك الدراسات الانثروبولوجية والاثنوغرافية التي علقت بين ثنائية الغربي وغير الغربي، يعني بالضبط تلك التصورات للعقل الانثروبولوجي الغربي للجسد تجاه غير الغربي (المركزية الثقافية) بقدر تسجيل أهم حلقات الدرس الانثروبولوجي للجسد، " يظهر الأدب الاثنوغرافي تنوع تصورات الجسد في الزمان والمكان ويبرز هذا التنويع في مثالين أساسيين، يضم الأول المجتمعات التي على غرار الغرب منذ أفلاطون... ويشمل الثاني أنظمة العالم التي تعتبر الإنسان العالم المصغر كصدى للكون..."[22]، أو كما عبر عن ذلك.

الانثروبولوجيون من خلال الدراسات الكولونيالية وما بعد الكولونيالية وما تعرض له هذا الجسد البشري أو تلك الثقافة ككل.

لا يمكن أن ننفي صيغ التراكم المعرفي حول الجسد بحجة انه حقل اختلاف وتنوع معرفي وثقافي خاص وعام لذلك نسعى إلى التثبت أكثر في مرحلة مرّ بها هذا الجسد البشري، تتساءل "هيلين توماس"(Helen thomas)" في كتابها المهم"هل للعرق أهمية؟، ما يهمش إن كنت اسودا أو ابيضا"مايكل جاكسون"؟.هل مايكل جاكسون اسود؟ هل هو ابيض؟."[23]

لقد حمل الجسد عبئ العرق وكان موضعا لصراعات طاحنة في حلقات التاريخ الإنساني " فالعرق بالضرورة يعايش ويختبر عبر الجسد والحد الفاصل بين الذات والأخر بين الداخلي والخارجي–الجلد– هو إحدى أكثر علامات العرق عناء طوال التاريخ الغربي، فالجلد هو الانعكاس المرئي للإيديولوجيات المعّرقة"[24].

نلاحظ هنا كيف أن جلد الجسد البشري لعب دورا على مستوى والايديولوجيا التي يتنفس بها الإنسان كما حدث مع استعلاء الرجل الأبيض على الأسود وكيف فرّقت مجتمعات و بنى أخرى وتنازعت طوائف وأعراق على هذا الأساس؛ إن عملية تعريق الجسد ليست مركبا بسيطا بل هو كل تلك التفاعلات الدينامكية الكلية والاستثنائية وحتى الطبيعة الصراعية ولهذا فإن التعريق مفهوم نقصد به:" السياق الديالكتيكي الذي يجري من خلاله ربط المعنى بملامح بيولوجية خاصة للكائنات الإنسانية ويترتب عليه إدخال الأفراد في طائفة عامة تعيد إنتاج نفسها بيولوجيا"[25]

إن الجسد بطبيعته عامل مثير للبداهة سواء مورفولوجيا أو صوريا إلا أن الحقيقة تثبت دائما عكس ذلك على مستوى الوقائع والأحداث وهذه الأخيرة تثير السؤال الفاحص والرافض في آن واحد لأشكال البداهة في التفكير، فالجلد مثلا أمر

بيولوجي بسيط لا نلقي له بالا بالقدر الذي نصف به أعراقا عن أخرى ونسعى جاهدين إلى تصور الحياة وممارستها التي لا تكون إلى بمصنفات جلد الجسد، لا يبدو الحديث عن العرقية مسالة تاريخية منتهية بل لزالت العلوم الإنسانية والاجتماعية تواجه الكثير من المشاكل العرقية والاثنية :" نشوء سياسات الهوية وانهيارها في ثمانينات القرن الفائت واستخدام بدل ذلك الإثنية خاصة الاثنيات الجديدة وأخيرا تنمية تحليلات العرقية الجديدة والمركزية الإثنية" [26]

يبدو أن طبيعة تشكّل المجتمع آخذة في التجدد والتنوع عبر هذه الأطر الثلاثة من سياسات الهوية الاثنيات المتعرّقة أو العرقية الجديدة وهذه الأطر خيوطها الفكرية والسلوكية المجتمعية متقاطعة:"... فإن سياسات النضالية العرقية التي نشأ عنها النضال السياسي القائم على الهوية سواء هوية آسيوية أصليتين عرقا أخلى السبيل في أوائل التسعينات إلى فهم المعرفة العرقية أكثر قبولا للأخر، وكان من المرجح أن تتأسس عرقية جديدة على الاختلافات الإثنية والثقافية بمثل ما كانت مؤسسة على لون الجلد،وكانت مهمة الاكاديميين هي أن يفهموا الطرائق التي تتعرق بها الاثنيات ذاتها"[27]، فالعرق كمفهوم أساس في الانثروبولوجيا والاثنوغرافيا لم يعد يشكل بريقا معرفيا بقدر تنوع وتعدد أشكال وأساليب التعّريق، فالتعّريق يشبه أن نتحدث عن ظاهرة تعنيف السود للأسيويين والأسيويين ضد السكان الأصلين ومهاجمة السود للبيض فلم تعد تلك النظرية العنصرية بالصورة الأحادية من رجل ابيض ضد اسود، بل توسعت إلى إحدى إشكالات الإسلاموفوبيا والخوف من الأجنبي،:" إن المقتربات التربوية والتعليمية والنضالية من العرق مضت عبر تيارين، أولا تعريف التعددية الثقافية بأنها نموذج إضافي ويمكن للمرء أن يرى في هذا الموقف أن ثقافات كثيرة توجد داخل المجتمع (تركيز على الثقافة وليس العرق)،

وثانيا المقتربات المناهضة للعرقية والتي تحظر التجانس داخل الجماعات وتحاول الحفاظ على نضالية مجتمع اسود وهو تشيّء المجتمع"[28] .

إنه لمن الجيّد أن تتفطن بعض المجتمعات لإيجاد سبل التعاطي المثلى مع إشكالات محورية وأساسية داخل الحياة اليومية لكل الأفراد والمؤسسات الاجتماعية، كما أن الاشتغال على أطروحات من أعلى إلى أسفل عبر احتواء المشاكل العرقية والعنصرية يبقي أكثر على الإشكالات الصراعيّة والنزاعات بالرغم من مقاربتها السياسية الثقافية التربوية، إلا ان الحقيقة توجب مراعاة الطرفين والسبل التي تتم العرقية والعنصرية استمرارها ومعاودتها في تراسيم وتمارين الجسد.

لقد حاولت " توماس" في أطروحتها إجراء بعض من المقترحات الميدانية المشتغلة بمشكلة "الجسد المعرّق" من خلال استقراء بعض المواقف و سلوكيات الأطفال المدارس ببريطانيا التي تضم السود والبيض والأسيويين:"...وبخلاف دراسات أخرى وكما أسلفنا فان الأطفال كانوا يستخدمون العلامات الدالة على الجمال والجاذبية المتجاوزة للتصنيف وتحديد الهوية المعرقيّن وقد لا يكون هذا التفكير، بعد عرقي..."[29]

في طيّات هذا التحقيق الميداني الذي طرحته وتفاصله مقتضبة قد وجدنا شيئا جد مهم لمعرفة الأساس التكويني لظاهرة التعريق عند الأطفال(عملية الجمعنة) وانطلاقا نحو المجتمع وذلك من خلال لون الجلد ومكان إقامة كل فرد واصله الثقافي وكذا بعض من أساسيات الذوق والجماليات التي تتدخل في ربط علاقات شخصية أو بناء موقف معين تجاه شخص أو جسد ما.

إن المهم من طرح مسألة تعرّيق الجسد أو ظاهرة التعريق تظهر من خلال الكشف عن شبكات القوى المفهومية والاعتقادية المهيمنة على خطاب ثقافي أو تصور اجتماعي معين يؤسس لأنماط ونماذج وطبقات اجتماعية، هذه الأخيرة التي

تتخفى فيها كل أنواع التعريق والتمييز وتكشف كل ما هو جسدي، هذا من جهة ومن جهة أخرى نرى كيف تظهر آليات الإقصاء الاجتماعي فالهيمنة والإقصاء دائرتين متقاطعتين على الجسد الذي يحمل ويفعّل هذا الصراع السلطوي والعنيف من الجسد واليه.

إن الجسد المعرّق هو تعبير صارخ عن كل أشكال التمييز والتراتبية وقد يبدو هذا عاديا في مجتمعنا عندما نتظاهر أننا على شاكلة واحدة أو متقاربة في لون الجلد لكن إن نحن اتجهنا جنوبا سنجد أن ظاهرة الجسد ولون الجلد بدأت تثور وتطفو إلى السطح من خلال تراتب معين أو حدث اجتماعي عن الزواج وغيره (الشخصية المجسدة والجمال المعرّق المميز).

" فقد أصبحت القيمة المرتبطة بعلامات العرقية المقرونة أكثر وضوحا...إذا كانت العرقية تعبيرا عن التفوق والدونية فهي لوقت ذاته تعبير عن منطق نوعي(Gendred) ومرة أخرى، فإن عمليات التطهير مركزية في هذه المناقشات"؛ إن الجسد يكاد يصبح كلية الصورة والمتخيل والتمثل خاصة في مجالنا المرئي، وهذه الصورة تجد سبل الهيمنة والتمدد ثقافيا عبر أدواتها ووسائلها وأصبحت عملية التشهير والإعلان أثيرها الخاص وهذا ما يجعلنا نتابع رحلة التمدد هذه وطرح إشكالات راهنة للجسد.

4.خاتمة:

الجسد الإنساني ليس معناه المادة والشكل وحسب فهذا التسطيح المعرفي ليس يوصلنا إلى شيء ،إلا أن نفهم كيف تقوم تلك الإيديولوجيات والسياسة والثقافة والمجتمع والتقنية مجتمعة بترك نقوشها عليه او كشف تلك الأساليب السلطوية الإكراهية المتدخلة فيه وبه، فالجسد ليس كيانا مجرد او بنية ساكنة فهو مجال نشط دينامي يختبرنا من خلال تحولاته وتغيراته، فالجسد لم يكن يوما صامتا فبلغة علوم

اللسان هو نص يحمل حمولات ثقافية واجتماعية تستدعي استقرائه دائما وتفكيكه.علينا ان نهتم بهذا المنظور التحليلي الدلالي والسوسيولوجي والأنثروبولوجي لنقترب أكثر من فهم الظواهر الإنسانية المعقدة، فهويتنا الفردية والجنسية والجندرية لها علاقة وثيقة بحقل تشابك العلاقات السلطوية حوله، فالذكورة والأنوثة لعبة في علامة الجسد وهذا ما يكون مهما في الدراسات الثقافية الجسدية.

5.المراجع

1-اندروا جار و بيتر سيدجويك، موسوعة النظرية الثقافية المفاهيم والمصطلحات الأساسية، ترجمة هناء الجوهرى و محمد الجوهرى، المركز القومي للترجمة. ط2. القاهرة . مصر. 2014. ص.300.

2-المرجع نفسه ص300.

3-محمد همام النقد الثقافي مدخلا للوحدة والتأليف مدخل في نقد الثقافة-النسق.almultaka.org./site.php2020.10.02.

4-المرجع نفسه.

5-/ar.wikipedia.org/wiki: //httpدراسات ثقافيةجسدية

6-المرجع نفسه

7-محمود مطمان،كتابة الجسد بين الدراسات الثقافية ومابعد الحداثة والفمنستية.ترجمة هناء خليف غنى.مجلة المدى عدد 1482 الاربعاء 15-03-2009.-www.almadapaper.com: //http

8-المرجع نفسه .

9- بيار بونت وميشال ايزار ، معجم الاثنولوجيا والانثروبولوجيا،ترجمة مصباح الصمد، المؤسسة الجامعية للدراسات والتوزيع،بيروت لبنان،ط2، 2011،ص435..

10-المرجع نفسه ،ص 435.

11-المرجع نفسه .ص436.

12-المرجع نفسه ص436.

13-المرجع نفسه ص 436.

*ميرلو بونتي موريس(Merleau ponty Mourice)-1907-1961 هو فيلسوف فينومينولوجي فرنسي الاصل اولى اهتماما خاصا لدراسة العلاقة بين الوعي والجسد والعلام

الخارجي ، كان فترة من حياته صديقا وزميلا لجان بول سارتر، طور بونتي وصفا للعالم باعتباره مجالا للخبرة يجد المرء فيه نفسه, راجع دليل اكسفورد للفلسفة تحرير تدهوند ريتش، ترجمة نجيب الحصادي ص855.

14- مارزانو ميشيلا ، فلسفة الجسد، ترجمة نبيل ابو صعب ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع . بيروت لبنان، ط 1، 2011، ص 07.

15-المرجع نفسه، ص07.

16-المرجع نفسه ص08.

17- سمية بيدوح ، فلسفة الجسد، دار التنوير . بيروت لبنان ، ط 1 . 2009. ص 19.

18-المرجع نفسه، ص20..

19-المرجع نفسه،ص20.

20-المرجع نفسه،ص21.

21-المرجع نفسه ،ص107.

22-المرجع نفسه، ص108.

23-المرجع نفسه، ص111.

24-المرجع نفسه، ص111.

25-المرجع السابق،ص114.

26- بيار بونت وميشال ايزار،مرجع سابق ، ص435.

27- هيلين توماس ، جميلة احمد، الاجساد الثقافية ، الاثنوغرافيا والنظرية، ترجمة اسامة الغزولي،المركز القومي للترجمة،الجيزة القاهرة،مصر، ط1 ،2010 ص119.

28- المرجع نفسه ، ص119.

29-المرجع نفسه،ص120.

30- هلين توماس و جميلة احمد، المرجع السابق، ص .122

31-المرجع نفسه ،123.

32-المرجع نفسه،ص125.

33-المرجع نفسه، ص139.

34-المرجع نفسه،ص135.